العالم الاسلامى فى انطلاقاته الصاعدة

فى حاجة إلى إيمانيات التصوف وعزماته

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

يقول الصوفى الإسلامى الكبير شاعر الهند محمد إقبال ، مصورا مشكلة العالم الروحية . ومشكلة المسلمين فى اللحظات الحاسمة التى نعيشها اليوم .

« إن الإنسان العصرى ، وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس .

فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح إثرته الجارفة . وحبه للمال حباً جماً طاغياً . يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ! ؟

هذه هى حال الغرب ! !

وليست حال الشرق خيرا منها فأسلوب الصوفية وهو الأسلوب الذى تطورت ونمت به الحياة الدينية فى أسمى صورها ، أصبح الآن فى حكم الفاشل .

لقد انطفأت وقدته ، وخبأت أنواره ، وأصبح أبعد ما يكون عن تدعيم قوى الحياة النفسية عند الرجل العادى ، بحيث تعده للمشاركة فى موكب التاريخ .

لقد انقلب إلى نوع من الزهد الزائف يجعل صاحبه يقنع بجهله ورقه الروحى قناعة تامة .

ومن ثم فلا عجب أن اتجه المسلم العصرى فى تركيا ومصر وإيران إلى البحث عن مصادر جديدة لنشاط يوجد أنواعا جديدة من الولاء ، مثل الوطنية والقومية ، التى وصفها — نيتشه — بأنها مرض وحماقة ؟

فعند ما يئس المسلم العصرى من إيجاد طريقة دينية خالصة تجدد قوى الروح ، تعلق أمله فى شغف بقوى جديدة ، كالإشتراكية الملحدة الحديثة ، ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة .

ولكنه دين ينزع إلى أضعاف روح الإنسان ، وأنضاب ينابيع قوته الروحية !؟

ولا ريب فى أن اللحظة الحاضرة تمثل أزمة خطيرة فى تاريخ الثقافة العصرية ، ولقد أصبح العالم مفتقرا إلى تحديد ، والدين الذى هو وحده القادر على إعداد الإنسان إعداداً خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث ، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان التى تجعله قادرا على الفوز بشخصيته فى الحياة الدنيا ، والاحتفاظ بها فى دار البقاء . . . .

* * *

وفى تلك الكلمات المفكرة المضيئة لأقبال ، تتجلى حقائق ثلاث نضع تحتها الخطوط العريضة ؟

فالحقيقة الأولى : أن الإنسان فى الأفق الغربى قد أعماه التقدم المادى الهائل عن الروح ، فانقلت فى مجتمعاته إلى قطيع من الكباش التى تتناطح فى حلبات الصراع الاقتصادى والسياسى ، ثم انقلب على نفسه فى صراع فكرى مدمر لكل طيبات النفس وكنوز القلب ، فاشتعلت حياته الداخلية والخارجية بلهب الشقاء ، فقد أمات فيه حب المال والشهوات كل تطلع لنضال سام فى سبيل الصعود الروحى .

والحقيقة الثانية : أن شرقنا الإسلامى وقد بنيت نهضاته السابقة على أسلوب صوفى هو الصورة العليا الصادقة للروح الدينى الإسلامى ، انطفأت فيه المشاعل ، وخبأت الأنوار ، وانقلب الروح الصوفى العملاق ، إلى همود وخمود وزهد فاشل منهزم ، وجهالة يسميها إقبال « جهالة الرق الروحى » وبذلك أصبح أعجز ما يكون عن مواصلة السير فى موكب التاريخ .

والحقيقة الثالثة : أن الشباب المسلم فى الأمم الإسلامية ، وقد أحس بالفراغ الروحى الهائل ، بانهزام الروح الصوفى لديه ، تعلق أمله فى شغف بقوى جديدة ، أبرزها الشيوعية الملحدة بما فيها من حمية وحرارة فمنحها كل ولائه ، وبذلك أصبح الشاب المسلم زيلا لحضارة تتأجج النار فى داخلها وتوشك على الانفجار .

ولانجاة لنا نحن أبناء الإسلام ، ونحن فى اللحظة الحاسمة ، بالنسبة لنا وللإنسانية

كافة ، إلا بحمل الرسالة المنقذة لنا ولبنى الدنيا ، رسالة الروح الصوفى الصاعد ، التى تعلو على الكهنوت ، رسالة الخلق المتسامى ، والإيمان الحار ، واليقين الثابت .

رسالة الروح التى تعد المسلم لكى يكون جديرا بلقب المنقذ العالمى ، تعده ليكون كفؤا لتحمل تبعات الحياة التى أنجبها العلم الحديث بكشوفاته الهائلة ، بإقامة جسر إيمانى ، يصل شطرى الحياة ، المادى والروحى .

تلك الروح هى وحدها القادرة على أن تصنع شخصية المسلم المنتصرة المنقذة ، شخصية المسلم التى يتميز بها على العالمين .

هذا الروح الصوفى الذى يتحدث عنه إقبال ، هو غايتنا ورسالتنا ، وهو الفجر الذى ترقبه الإنسانية لغدها وحياتها .

ولكن ما هو هذا الروح ؟ إنه تصعيد كل عمل من أعمال الدنيا إلى الله ، وهذا العنوان عندى ، هو أجمع تعريف للتصوف .

وليس معنى هذا ، العجز أو الضعف أو الخمول ، فالتصوف الصادق ، هو الجهاد فى أعلى ذراه ، جهاد النفس حتى تسمو فوق غرائزها وشهواتها ، وجهاد فى سبيل الله حتى تعلو كلمة الحق ، وجهاد لتكون الحياه أنضر وأبهى ، وأطهر وأسمى ، وجهاد لتحقيق المثل الأعلى فى كل شىء يتصل بالانسان ، ويتصل الإنسان به .

والمتصوف الصادق ، هو الذى يعيش فى يقظة وجدانية حية قوية ، وفى يقظة روحية مشرقة عالية ، وفى يقظة حسية مناضلة متطورة .

وبهذا التصعيد تنقلب كل الأعمال الدنيوية إلى أعمال روحية ، وبذلك تتسم الأعمال كافة وتنطبع بالخير والخلق ، وما إلى الخير والخلق ، من نبل وسمو وحب وجمال وكمال .

والمتصوف إنسان حر ، حرية مطلقة غير محدودة ، قد تحرر وجدانا وضميرا وروحا وخلقا وعقلا ، لا تستعبده شهوة ، ولا تسترقه قوة ، ولا ترعبه صولة ، ولا تغريه نزوة ، إن عبوديته لربه قد أطلقت إساره ، وفكت قيده من كل عبودية لسواه .

والمتصوف قوة لا تقف فى وجهه القوى ، لقد أطلق قواه الروحية الهائلة من عقالها وفجر المدخرات القلبية وأرسل طاقاتها ، وخضع لربه وخشع ، فعاش فى أفق

الحديث القدسى عن رب العزة : « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها » .

ثم هو خلق يرنو إلى السماء أبدا . يستشرف الكمال دائما ، يقول الإمام الكرخى : « كل من زاد عليك فى خلقه فقد زاد عليك فى تصوفه » وما أصدق هذا الميزان

ثم عظمة نفسية شاملة لا تعرف الكبرياء ولا الغرور ، يقول أبو يزيد البسطامى « إذا أحب الله عبدا أسبغ عليه صفات ثلاث دليلا على حبه ، سخاء كسخاء البحر ، وإحسان كإحسان الشمس ، وتواضع كتواضع الأرض » .

ثم عبادة دائمة يقظة حارة . تشمل كل شىء . وتحيط بكل شىء ، فالصوفى يرى الكون كله محرابا ، ويرى الأعمال جميعها ذكراً وتسبيحا ، إنه ليعبد الله بقلبه وخلقه وما تصنع يداه .

ثم تسامى بالروح فوق كل ماديات الأرض وشهواتها . أو كما يقول العلامة التوحيدى : « الصوفى هو ذلك الإنسان الكبير الذى يتخطى الحدود التى رسمتها للجنس البشرى ماديته » .

ثم طهارة باطنة وظاهرة ، طهارة القلب واليد واللسان والجوارح والضمائر ، ورحمة عالية بكل ذى كبد حى ، وكل شىء فى الوجود تسرى فيه الحياة .

ثم حب لله جل جلاله ، يشعل النور فى كل شىء ، حب تنبثق فيه محبة الإنسانية كافة .

بل حب كل شىء فى الوجود لأنه من صنع الله ، أو كما يقول حجة الإسلام الغزالى : « إن الحب الذى استحوذ على قلب الصوفى ، ليس هو حب الإنسان لله فحسب ، بل هو حب الله لجميع البشر ، فمن خلال هذه العقيدة يحب الإنسان الإنسانية كلها حباً تعبديا ، وليس هذا الحب هو الأخوة التى يوصى بها الفلاسفة باسم العقل ، إنه لشىء أكبر مما تفقه الفلسفة » .

إنه الانفعال السامى ، بتصعيد الغرائز إلى مواجيد الشوق وألحان الوجد ، وهيام الإيمان .

إنه الصلة الحارة التى تجعل الإنسان أبدا على موعد من ربه ، ونجوى من خالقه ، أو كما يقول الإمام ، سهل بن عبد الله التسترى :

« إن الدين الحى هو ما صبته الصوفية حاراً فى النفس الإنسانية » .

ثم تجربة يقينية تحرق فى أعماق النفس شكوكها وأوهامها ، وتكشف الآفاق التى لا ترى بالعين المادية .

ثم امتلاء القلب بعقيدة طبعت على الشغاف بأحرف من نار ونور ، ومن تلك العقيدة ينطلق الإيمان القوى الأبى الذى لا تزلزله الأحداث ، ولا تنال منه طارقات الزمن .

الإيمان الذى يصنع الإنسان ويكتب التاريخ ، الإيمان الإيجابى الشامخ الذى يقدم الحلول الحاسمة الأزمات الروحية والفكرية التى تقيد انطلاقات العالم الإسلامى فى دوره الصاعد .

وتلك رسالة التصوف اليوم .